أبو دلامة زند بن الجون
الشاعر النديم، صاحب النوادر، ومضحك الخلفاء

هو الشاعرُ النديم ، صاحبُ النوادر ، ومُضحك الخلفاء .

نادم الخليفةَ العباسىّ أبَا جعفر المنصور ، ونادم المهدىَّ من بعده ، ويقال : إنه عاش إلى أوائل دولة الرشيد .

وله «حِيَلٌ مضحكة» ، ونوادر وطرائف مسلية ، تُشِيعُ جوّا من البهجة والسرور فى المجالس ، وتُضْفِى عليها روحَ الوُد ، والتَّقَارُب.

ولهذا كانت له منزلته ، يُسأل عنه إن غاب، ! ، ويُحتفى به إن حضر .

وكان محبوبا لا يُرد له طلب .

وكُتُبُ الأدب مليئةٌ بنوادره اللطيفة ، وحكاياته الطريفة ، وحيله المضحكة مع الخليفة أبى جعفر المنصور ، والخليفة المهدى من بعده .

وحكاياتهُ مع الخلفاء تُلقى ضوءًا على الجانب المرح من حياتهم فى مجالسهم ، وما كان له من أثر فى تجديد نشاطهم وصفاء نفوسهم ، وإبعاد الهموم من سماء حياتهم ، وإشاعة جو من البهجة والمحبة بينهم وبين من يجالسونهم ، وعندما تستجم النفوس تكون قادرة على إشاعة روح العدل بين الرعية .

فتعال إلى «أبى دلامة» لنستمتع ببعض نوادره وطرائفه .

أبو دُلامة وأبو جعفر المنصور

من نوادر أبى دُلامة التى أضحكت الخليفة أبا جعفر المنصور أنه تُوُفِّىَ لأَبى جعفر ابنة عَمٍّ فحضر جِنازَتها وجلس لدفنها ، وهو متألم لفقدها كئيبٌ عليها !

فأقبل أبو دُلامة ، وجلس قريباً منه ، فقال له المنصور : ويْحَكَ ! ماذا أعددتَ لهذا المكان ! ، وأشار إلى «القبر» فقال :

أعددت له ابنةَ عَمٍّ أميرِ المؤمنين !

فضحك المنصور حتى استلقى !

ثم قال له : ويْحَك ! ، فَضَحْتَنَا بين الناس [1] !

يقولون مالا يفعلون !

اتفق أن «أبا دُلامة» تأخر عن الحضور بباب أبى جعفر أياما ، ثم حضر ، فأمر بإلزامه القصر !

وألزمه بالصلاة فى مسجده ، ووكل به من يلاحظه فى ذلك فمرّ به «أبو أيوب» المرزبانى ، وزير أبى جعفر ، فدفع إليه أبو دلامة رقعة مختومة ، وقال : هذه ظُلاَمَةٌ (شكوى) لأمير المؤمنين ، فأوصلها إليه بخاتَمها، فأوصلها إليه ، فإذا فيها :

ألم تعلموا أن الخليفة لَزَّنى

بمسجدِهِ والقَصْرِ ، مالى وللقصر [2]

أصلّى به الأُولى مع العصر دائمًا

فويلى من الأولى ، وويلى من العصر

---

(١) ذكر الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» أن هذه الميتة كانت زوجة المنصور .

(٢) لَزّني بمسجده : ضَمّنى إليه ، وألزمني إياه

ووالله مـــالى نيـــة فى صـــلاتهم

ولا البرُّ، والإحسانُ، والخير من أمرى

ومـــا ضَـــرّه - والله يُصلِحُ أمـــرَه

لَوَ انّ ذنوبَ العـالمينَ على ظهـرى ؟!

فضحك المنصور ، وأحضره ، وقال :

ما قصتك ؟ قال : دفعت إلى أبى أيوب رقعةً مختومة ، أسأل فيها إعفائى من لزوم الذى أمرتنى بلزومه !

فقال له أبو جعفر : اقرأها !

قال : ما أُحْسِن أن أقرأ ، وعلم أنه إن قرأها يَحُدُّه بذكر الصلاة ، فلما رآه يتنصّلُ من ذلك ، قال له :

أحببت لو كنت أقررتَ لأَضْرِبَنّك الحد! ، ثم قال : أعفيتك من لزوم المسجد .

فقال أبو دُلامة : أوَ كنت ضاربى يا أمير المؤمنين لو أقررت ؟ قال : نعم .

قال : مع قول الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] فضحك منه ، وأعجب من إسراعه ، ووَصَله !

أبو دلامة يشكو إلى المنصور

كان الخليفة المنصور قد أمر بهدم دور كثيرة منها «دار أبى دُلامة» ! فلم يَقرّ له قرار ! إنه سوف يصبح بين عشية وضحاها بلا دار ، فكتب إلى المنصور قصيدة جاء فيها :

يا بنَ عمِّ النبىّ دَعْـــوَةُ شـــيخٍ

قـــــــد دَنَا هَدْمُ دارِهِ وبَوارُه

فهو كالماخض (١) التى اعْتَادَها الطَّلْ..

.. ق فَـقَـرَتْ ، ومـا يَقِـرّ قَـرَارُه

لكمُ الأرْضُ كُلُّهـا فـأعـيـروا

عـبـدَكم مـا احْـتَـوَى عليـه جِـدَارُه

فلما قرأ أبو جعفر شكواه ضحك ، وأمر له بدار عوضا عنها!

إنى حلفت لئن رأيتك سالماً ..

لما قدم المهدِيُّ بنُ المنصور من الرَّى إلى بَغْداد دخل عليه أبو دُلامة للسلام، والتهنئة بقدومه ، فأقبل عليه المهدى ، وقال له:

وكيف أنت يا أبا دُلامة !

فقال : يا أميرَ المؤمنين :

إنى حلفتُ لئن رأيتُك سالمًا

بقُرى العراقِ ، وأنتَ ذو وَفْرِ (٢)

لَتُصَلِّيَنّ على النبىِّ محمدٍ

ولتَملأَنّ - دراهماً -حجرى !

فقال المهدى : أما الأولى ؛ فنعم . وأما الثانية ؛ فلا .

فقال : جعلنى الله فداك ! ؛ إنهما كلمتان ، لا يُفَرَّق بينهما !

فقال : يُملأ حجرُ أبى دلامة دراهم ، فقعد ، وبسط حجرَه ، فملئ دراهم ، فقال : قم الآنَ يا أبا دلامة!

فقال : ينخرق قميصى يا أمير المؤمنين لو قمت ، وحملت فيه الدراهم ! فردها إلى الأكياس ، ثم قام .

(١) الماخض : التي أحست بآلام الولادة حين جاءها الطلق .

(١) موفور الصحة والغنى والجاه .

دخل أبو دُلامة على الخليفة المهدى ، فقال له : سَلْنِى حاجتَك ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، هبْ لى «كلباً»!

فغضب المهدى ، وقال : أقول لك : سَلْنى حاجتَك، فتقول : هَبْ لى كلبا ؟!

فقال : يا أمير المؤمنين ، الحاجة لى أم لك ؟

قال : بل لك !

قال : فإنى أسألك أن تهبَ لى كلب صَيْد ، فأمر له بكلب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هبنى خرجت إلى الصيد أفأعدو على رجلىّ ؟

فأمر له بدابّة ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، من يقومُ عليها ؟ (يرعاها ويتولى شئونها.

فأمر له بغلام ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، هبنى صدت صيدًا ، وأتيت به المنزلَ فمَنْ يطبخه ؟ فأمر له بجارية !

فقال : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء يبيتون فى البادية؟ فأمر له بدار!

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد صيَّرت فى عُنقِى جملةً من العيال ، فمن أين لى ما يَقوتُ هؤلاء ؟

قال : قد أقطعتُك ألف جريب (مزرعة) عامرا ، وألف جريب غامرا (لا يصلح للزراعة).

قال : أما العامر ، فقد عرفته ، فما الغامر ؟

قال : الخراب الذى لاشىء فيه!

قال : أنا أُقطعُ أميرَ المؤمنين مئة ألف جريب بالبدو ، ولكنى أسأل أمير المؤمنين من ألف جريب جريبا واحدا عامرا .

قال : من أين ؟ قال : من بيت المال .

قال المهدى : حولوا المال ، وأعطوه جريبا .

قال : يا أمير المؤمنين ، إذا حول منه المال صار غامرا ، فضحك منه !

قال : فهل بقيت لك حاجة ؟ قال : نعم ؛ تأذن لى أن أقبل يدك! فقال : مالك إلى ذلك سبيل !

قال : والله مارددتنى عن حاجة أهون علىّ منها!

هنيئا لكما!

خرج المهدىّ وعلىّ بن سُليمان إلى الصيد ومعهما «أبو دلامة»؛ فرمى المهدى ظبياً فأصابه ، ورمى على بن سليمان ظبيا فأخطأه ، وأصاب كلبا !

فضحك المهدىّ ، وقال: يا أبا دُلامة ، قل فى هذا، فقال :

قد رمَى المهدىّ ظَبْيَا
شَكّ بالسَّهْم فُؤَادَهْ
وعلىُّ بن سُلَيْمَا
نَ رمَى كلبا فَصَادَهْ
فهنيئا لكما كُلُّ
امرئ يأكلُ زادَهْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم !

وضحك على بن سليمان ، وهو يكاد يتميز من الغيظ من لسان أبى دلامة !

قاتل اللهُ أبا دلامة وأُمّ دُلامة قد خدعانا!

دخل أبو دلامة على المهدى فقال :

يا أميرَ المؤمنين ، ماتت «أُمُّ دلامة» ، وبقيت لا أجد من يشاركنى الحياة!

فقال : أعطوه ألف درهم يشترى بها أمة تعوضه عن أم دلامة !

وكان «أبو دلامة» قد دَسّ أم دُلامة على «الخَيْزُران» ، فقالت: لها وهى تبكى : يا سيدتى ، مات «أبو دلامة» ، وبقيتُ ضائعة فأمَرتْ لها بألف درهم .

فدخل المهدى على «الخيزُران» ، وهو حزين ، فقالت له :

ما بالُ أمير المؤمنين ؟

قال : ماتت «أم دلامة» !

فقالت : إنما مات «أبو دلامة» !

قال : من أنبأك هذا ؟

قالت : أم دُلامة كانت عندى قبل حضورك !

قال : قاتل الله أبا دلامة ، وأم دلامة ، قد خدعانا والله !

رحم آدم وحواء !

كتب الشاعر الأسود «زَندُ بن الجَوْن» الملقب بأبى دُلامة ، إلى الخليفة المهدى رُقعَةً يشكو فيها الصوم والحر ، ويستنجزه جائزة تأخرت جاء فيها :

أدعـــوك بالرّحِم التى جـــمـــعت

فى القُـــرب بين قـــريبِنَا والأبْعَـــدِ

إلا ســـمـــعتَ ، وأنتَ أكـــرمُ مَن مَـــشى

مِن مُنْشِـــدٍ يَرْجُـــو جـــزاءَ المُنْشَـــدِ

جـاء الصّيـامُ فـصُـمـتُـه مُـتَـعَـبِّـداً

أرجـــو رجـــاءَ الصـــائِم المتَـــعَـــبِّـــدِ

وسـجـدْتُ حـتى جـبـهـتى مشـجـوجـة

مما يناطحنى الحـصى فى المسـجـد

فـامنُنْ بتـسـر يحى بمطلك بالذى

أسلَفْـــتَنيـــهِ من البـــلاء الموصَـــدِ

فلما قرأ المهدى الرقعة غضب وقال :

أى رحم بينى وبينك ؟!

فأجابه : رحم آدمَ وحَوّاء ، أنسيتَها يا أميرَ المؤمنين ؟

فضحك المهدى و قال :

واللّه ما نسيتُها ، وصدقتَ يا أبا دُلامة !

ثم أمر بتعجيل ما أجازه ، وزادَه فيه !

من حيل أبى دلامة

أمر الخليفة المهدى «أبا دُلامة» بالخروج مع الجيش المحارب!

فـقـال أبو دلامـة : أنشـدك اللّه يا أمـيـر المؤمنين أن لا تُحْضرنى شيئا من عساكرك ؛ فإنى شهدت تسعة عساكر انهزمت كلها ، وأخاف أن يكون عسكرك العاشر !

فضحك المهدى منه ، وأعفاه !

ومن حيل أبى دُلامة فى الحرب !

كان «رُوحُ بنُ حاتَم المهلّبىّ» واليًا على البصرة ، فخرج إلى حرب الجيوش الخُراسانية ، ومعه «أبودلامة» !

فخرج من صَفّ العَدُوِّ مُبارز ، وخرج إليه جماعة من جيش «رُوح بن حاتم» فقتلهم !

فتقدم «روح» إلى «أبى دلامة» طالبا منه أن يخرج لمبارزة ذلك الخراسانِىّ !

فامتنع أبو دلامة ، فألزمه رُوح ، فطلب إعفاءه ، فلم يُعْفِهِ !

فأنشد أبو دُلامة :

إنّى أعُـــوذُ بُروحٍ أنْ يُقَـــدِّمَنى
إلى القتَال ، فَيخزى بى بَنُو أسَدِ !
إنّ المهلّبَ - حُبَّ الموتِ - أورثَكُمْ
ولم أَرِثْ أنَا حُبَّ الموتِ مِنْ أَحَـــدِ
إنّ الدُّنُوَّ إلى الأعْـــداءِ أعْلَمُـــه
ممّا يُفَـــرّقُ بين الرُّوحِ والجَسَـــدِ!

فأقسم عليه لَيَخْرُجَنّ ، وقال : لماذا تأخذ رزقَ السلطان ؟

قال : لأ قاتلَ عنه .

قال : فما لك لا تَبْرزُ إلى عَدُوِّ الله ؟!

فقال : أيها الأمير ، إن خرجتُ إليه لحقتُ بمن مضى ! ، وما الشرطُ أن أُقتَل عن السلطان ، بل أقَاتِلُ عنه !

فحلف روح : لتخرُجَنّ إليه ، فتقتُلَه ، أو تأسِرَه ، أو تُقْتَلَ دون ذلك !

فلما رأى الجدّ منه قال : أيها الأمير ، تعلم أن هذا أول يوم من أيام الآخرة ، ولابد فيه من الزاد ، فأمَرَ له بذلك ؛ فأخذ رغيفًا مطويا على دجاجة ، ولحم ، ومزادة فيها شراب ، وشيئا من نَقْل[1]، وشهرَ سيفًا ، وَحَمل على العدوّ !

وكان تحته فرس جَوَاد ، فأقبل يجول ويصول ، ويلعب بالرمح ، وكان مَليحاً فى الميدان ، والفارس يلاحظه ، ويطلب منه غِرّة «غفلة» : حتى إذا وجدها حَمَل عليه ! ، والغبار كالليل، وعندئذ أغمد أبودلامة سيفَه ، وقال للفارس : لا تَعْجَلْ، واسَمع منِّى - عافاك اللّهُ - كلمات أُلقيهنّ إليك ؛ فإنما أتيتُك فى مُهِمّ ! فوقف مقابله ، وقال : ما المُهِمّ ؟

قال : أتعرفنى ؟ قال :لا . قال : أنا أبو دُلامة !

قال الفارس : قد سمعتُ بك ، حياك الله ! ، فكيف برزْتَ إلىّ ، وطمعتَ فىَّ بعد مَن قتلتُ من أصحابك ؟!

قال : ما خرجت لأقتُلكَ ، ولا لأُقاتلَك ، ولكنى رأيتُ لباقَتَك وشهامتَك ، فاشتهيت أن تَكون لى صديقا ! ،

وإنى لأدُلُّك على ماهو أحسن من قتالنا !

قال : قل على بركة الله تعالى !

قال : أراك قد تعبت ، وأنت - بغير شك - سَغْبَانُ (جوعان) ظمآن ، قال : هو كذلك ، قال :

فما علينا من خُراسانَ والعراق ! ، إن معى خبزا ، ولحما ، وشراباً ، ونَقْلا ، كما يتمنى المتمَنى ! ، وهذا غدير ماء بالقرب منا ؛ فهلم بنا إليه ، وأترنم لك بشيء من حُدَاءِ الأعراب ،

(١) النّقل : ـ بفتح النون أو ضمها ـ ما يتنقل به من فواكه وكوامخ وغيرها ، وما يتفكه به من جوز ولوز وبندق ونحوها .

فقال: هذا غاية أملى ! فقال : هأنذا أستطرد لك (أفر منك) فاتبعنى حتى نخرج من حلق الطّعان[1] !

ففعلا ، وروح يتطلب «أبا دلامة» فلا يجده ، والخراسانية تطلب فارسها ، فلا تجده !

فلما طابت نفس الخُراسانى ، قال له أبو دُلامة : إن رُوحا - كما علمت - من أبناء الكرام ، وحَسْبُك بابن المهلب جَوَادًا ، وإنه يبذل لك خلعة فاخرة ، وفرساً جَوَادًا ، ومركبًا مفضّضًا ، وسيفًا مُحَلّى ، ورُمْحاً طويلاً ، وجارية بربريّة ، ويُنزلك فى أكثر العطاء ، وهذا خاتمه معى لك بذلك !

قال : ويحك ! ، وما أصنع بأهلى وعيالى ؟

فقال : استخِر الله ، وسِرْ مَعِى ، ودع أهلك ، فالكلّ يُخْلَفُ عليك .

فقال : سِرْ بنا على بركة الله ، فسارا حتى قدما من وراء العسكر ، فهجما على روح ، فقال : يا أبا دُلامة ، أين كنت ؟

قال : فى حاجتك .. ؛ أما قَتْلُ الرجل ، فما أطقتُه ، وأما سَفْكُ دمى ؛ فما طبت به نفساً ! ، وأما الرجوع خائبا ، فلم أُقدم عليه ، وقد تلطفتُ ، وأتيتك به أسيرَ كرمك ، وقد بذلت له عنك كيت وكَيْت ، فقال : مُمْضًى[2] إذا وثق لى !

قال : بماذا ؟ قال : بنقل أهله !

قال : الرجل : أهلى على بُعد ، ولا يمكننى نقلهم الآن ، ولكن امدد يدك أصافحك ، وأحلف لك متبرعا بطلاق الزوجة أنى

(١) الطّعان: - بكسر الطاء ـ الطعن والقتل والحرب . والحلق جمع حلقة ، وحلقة الطعان : دائرة القتال ، وميدانه .

(١) مُمْضًى : أى مُنَفَّذ، ومُجَاز. إذا صدق فيما يقول ، وكان موضع ثقة

لا أخونك ، فإن لم أفِ إذا حلفت بطلاقها ، لم ينفعك نقلها !

قال : صدقت ، فحلف له ، وعاهده ، ووفى بما ضمنه «أبو دلامة» وزاد عليه .

وانقلب معهم الخراسانى يقاتل الخراسانية ، وينْكِى فيهم أشد نكاية [1]، وكان ذلك أكبر أسباب ظفر روح !

رسالة إلى أمير بالبصرة

كتب أبو دُلامة إلى «سعيد بن دُعْلُج» ، وكان يتولى الأحداث بالبصرة ، وأرسل إليه مع ابن عم من بغداد الأبيات الآتية :

إذا جئت الأميرَ فقُلْ سلامٌ
عليكَ ، ورَحمةُ الله الرحيم

وأما بعدَ ذاك فلى غريمٌ
مِنَ الأَعْرَابِ قُبِّحَ مِنْ غَريم

له ألفٌ عَلَىَّ ، ونصْفُ أُخْرى
ونِصْفُ النِّصفِ فى صَكٍّ قَديم

دَراهمُ ما انتفعْتُ بِهَا ولكنْ
وصَلْت بها شيوخ بنى تَميم

فبعث إليه ابن دُعْلُج ما طلب !

كلامك مسموع وشهادتك مقبولة !

مرض ولد لابن أبى دلامة ، فاستدعى طبيبا ليداويَه ، وشرط له مبلغًا معلوما حين يتمُّ الشفاء !

فلما برئ ولده قال له : والله ما عندنا شىء نعطيك ! ولكن

(١) النكاية : الهزيمة والغلبة ، والإيقاع بالعدو .

ادّع على فلان - وكان ذا مال بمقدار ما اتفقت معك عليه ، وأنا وولدى نشهد لك بذلك !

فمضى الطبيب إلى القاضى بالكوفة ، وكان «ابن أبى ليلى» وقيل «عبد الله بن شُبْرُمة» ، وحمل إليه الغنىَّ المذكور ، وادعى عليه بذلك المبلغ ؛ فأنكر الرجل ، فقال الطبيب : لى بينة ، وخرج لإحضارها ، فأحضر أبا دلامة وولده ، فدخلا إلى مجلس القاضى ، وخاف أبو دلامة أن يرد القاضى شهادته ، فأنشد وهو فى طريقه إلى القاضى بحيث يسمعه :

إنِ النّاسُ غَطّونى تغطّيتُ عَنْهُمُ

وإن بَحثُوا عَنّى ، ففيهم مباحثُ

وإن نَبَشُوا بئْرى نبشْتُ بئَارَهم

ليعلم قومٌ كيف تلك النبائثُ (١)

ثم حضر بين يدى القاضى ، وأديا الشهادة ، فقال له القاضى كلامك مسموع ، وشهادتُك مقبولة ، ثم غرم المبلغ من عنده ، وأطلق الغَنىّ !

وما أمكنه أن يرد شهادتهما خوفاً من طول لسانه!

فجمع بين المصلحتين ، بتحمل الغُرْم من ماله الخاص .

ونوادره كثيرة ، وكانت وفاته سنة إحدى وستين ومائة ، رحمه الله تعالى !

ويقال : إنه عاش إلى أيام الرشيد ، وكانت ولاية الرشيد سنة سبعين ومئة !

---

(١) فى الأمثال: «من غربل الناس نخلوه» والمباحث جمع مبحث ، وهو هنا البحث عن العيوب. ويقال : ينبث عن عيوب الناس : أظهرها وأذاعها ونبث البئر : كناية عن إخراج المستور ، ونقول فى أمثالنا «السر فى بئر» .